بين سطور كتاب الإكليل

بدر عايد الزبالي الحربي

لاشكّ أن التجاذبات الفكرية والفئوية في بدايات الكتابة في صدر الإسلام، قد انحرفت عن تصحيح الوقائع التاريخية، وأكثر من تكلَّم في هذا المجال هم النسَّابة اليمنيون، ومن أشهر أولئك محمد بن السائب الكلبي وابنه هشام، ثم محمد بن الحسن الهمداني، وغيرهم، وكانوا يتبنّون مقولة أن (أصل العرب من اليمن) ويذيعونها؛ وذلك للتقليل من الشهرة الواسعة والمجد التليد للقبائل العدنانية التي تغطّي أرض الحجاز خاصة، وقد انعكست آراؤهم على علم النسب، فألفوا الكتب وصنفوا المصنفات، ومن خلالها نسبوا كثيرًا من الوقائع التاريخية وجيَّروها لليمن، ورفعوا الأنساب إلى آباء وجدود لا يمكن بأي حال من الأحوال الجزم بصحتها، وفي ذلك قال شاكر مصطفى: «كانت الرغبة في إثبات الوجود اليمني بجانب القيسي الشمالي في العهد الأموي تكسب دورها في صياغة الأنساب اليمنية، وقد أدخل علماء النسب اليمنيون الكثير من القصص الشعبي اليمني والمواد الأسطورية والأخبار الموضوعة على التاريخ وبخاصه تاريخ اليمن لغرض إعطائه مجال الوقوف أمام التاريخ العربي الشمالي» (التاريخ العربي والمؤرخون، ج٢ صـ ٣٠٩).

وكتاب الإكليل لمحمد بن الحسن الهمداني (ت٣٦٠) أحد هذه الكتب

المتصدرة للمشهد عند المشتغلين بالأنساب منذ القدم، وهو يتكوَّن من عشرة أجزاء مفقودة ما عدا الجزء الثامن والعاشر، وجد منها الأصل، وأما الجزء الأول والثاني فلم يوجد الأصل وإنما وجد مختصر كتاب الإكليل لمحمد بن نشوان الحميري (ت٦١٤هـ) على شكل صور فوتوغرافية مقاس راحة اليد طولاً وعرضًا، هذا ما ذكره محمد الأكوع المحقق لما وجد من أجزاء كتاب الإكليل، ويذكر بعض المؤرخين أن بقية الأجزاء المفقودة أتلفها اليمنيون أنفسهم لتطاولها على أنسابهم وتحريف بعضها، ويقول شاكر مصطفى عن مؤلف هذا الكتاب (الهمداني): «إنه مؤرخ قليل البصر في النقد يتقبَّل حتى الخرافات المرفوضة أحيانًا، ويعتمد بعض الرواة المعروفين بأوهامهم الوعظية، كما يسجل ترجمات مكذوبة على نصوص المسند، ويبدو أن تعصبه اليمني هو الذي كان يدعوه لتقبل كل ذلك انطلاقًا من هواه للموطن»... انتهى كلام (شاكر مصطفى، ص٣٣٦).

وذكر الشيخ حمد الجاسر في مقطع مصور له عن الهمداني: «حاول الهمداني أن يثبت أن تاريخ اليمن وأهل اليمن وحكام اليمن سبقوا غيرهم في كل شيء لهذا حملته العصبية على أن ينسب إليهم أمورًا غير صحيحة».

ونجد كتاب الإكليل (ج١) مكونًا من عدد كبير من الصفحات، جلها إضافات من المحقق الأكوع، وأبيات شعر منحولة نسبها المؤلف إلى شعراء غير معروفين، ومن يتأملها يجدها على نمط واحد وكأن قائلها شاعر واحد، ويجد فيها ما لا يقبله العقل والمنطق من القصص الأسطورية القديمة.

وذكر محقق الإكليل صـ ١٧ وهو يتحدث عن نفسه: «أن أباه عندما يقصّ عليه وهو صغير ويمر بأحداث اليمن وتاريخها يأتي بأخبار سحرية وحكايات أسطورية تبدو أغرب من الخيال ويذكر له كتاب الإكليل».

وكتاب الإكليل المحقق من قِبل محمد بن علي الأكوع ليس أصل الكتاب وإنما هو نسخة من مختصر الإكليل لمحمد بن نشوان الحميري وجدها المحقق في

مكتبة أحد وجهاء اليمن، ويصفها بقوله: «هي عبارة عن صفحات صغار بيضاء التقطت بالفوتوغراف وكأنها المرآة، تتخللها سطور مقرمطة منمنمة وكأنها أرجل الحلزون، وأن صفحات الكتاب تقدر بأصغر من راحة اليد طولاً وعرضًا، مما جعل قراءة الكتاب صعبة عسيرة، وفوق ذلك فإن الناسخ نحا في قاعدة الخط منحى غير معروف، ثم نقله القاضي يحيى بن محمد الجنيد في كراريس من خطه، وأخرج نسخة كاملة»، اعتبرها المحقق أصلا وحققها.

وقال فؤاد سيد عن الإكليل: «أولا: فيما يختص بنص الكتاب وتقويمه: فإن قلة مخطوطاته التي لم تتجاوز نسختين لم يكونا من الأصالة واللائقة بالقدر الذي يطمأن إليه ويركن عليه، فضلاً عما فيهما من تصحيف وتحريف قد أدى إلى بعض خلاف في قراءة بعض الكلمات التي لم تتضح قراءتها أو يتبين سياقها» (المقدمة).

ولك أن تتخيل أن نسخة يتيمة اختُصرت، ثم صُوّرت، ثم نُقلت، ثم أخرجت في كتاب يوصف بأنه محقَّق، ما مدى حجم التغيير أو التعديل أو التصحيف الذي طرأ عليها، علمًا بأن التباعد الزمني بينهم كبير، خصوصًا بين المؤلف وابن نشوان والمحقق محمد الأكوع، أضف إلى ذلك زيادات وحذف النُّساخ والمستفيدين.

ويستمر المحقق في وصف الكتاب الذي وجده في المكتبات فيقول ص٢٧: «وبين دفتي الكتاب يتلخص الجزء الأول والثاني والعاشر من الإكليل وفي أول صفحاته بياض إلى أن يلتقي القارئ بجملة هي -كل القبائل التي أولها جاسم وآخرها عبس- وهلم جرا بياض وسواد وفجوات وفراغ وحذف واختصار مما يجعل القارئ ينصرف مللاً وسأمة وعلاوة على ذلك ففيها من التصحيف والتحرير والمسخ والإهمال وخلوا حروف الاعجام من النقط فوق الحروف، بل كله مهمل وعلى وتيرة واحدة وهذا كله في الجزء الأول». انتهى كلامه.

وســأورد لكم نصوصًــا من بعض ما ورد في كتاب الإكليل، ســواءٌ كان المؤلف الهمداني أو ابن نشوان، أو كانت النصوص للمحقق محمد بن علي الأكوع، وأترك لكم الحكم على ما ورد في هذا الكتاب.

نصوص في كتاب الإكليل:

١. في كتاب الإكليل قصـيدة نسبها المؤلف لحســان بن ثابت صـ١٢٣ شاعر رسول الله صلى الله عليه وسلم:

فنحن بنو قحطان والملك العلي ... ومنا نبيّ الله هود الأخاير
وإدريس ما إن كان في الناس مثله ... ولا مثل ذي القرنين ابنا عابر
وصالح والمرحوم يونس بعدما ... ألات به حوت بأخلب زاخر
شعيب وإلياس وذو الكفل كلهم ... يمانون قد فازوا بطيب السرائر

إن قيل إنه قال هذه القصيدة قبل الإسلام فليس من طبع العرب في الجاهلية الافتخار بالأنبياء المذكورين، ولم يكن هذا التوجه معروفًا في الجاهلية، وإن قيل إنه بعد الإسلام فكيف يفخر بأنبياء غير رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم، وفوق ذلك كله تبدو القصيدة ضعيفة، وهي ليست في ديوانه.

٢. وفي كتاب الإكليل أن حمير بن سبأ سيَّر جرهم إلى جبال الحرم والحجاز ولاةً على العماليق وعبد ضخم، يقبضون إتاوتهم ويرسلونها إلى حمير في اليمن صـ١٢٦. في حين أن جرهم أتت إلى مكة ووجدت إسماعيل وأمّه هاجر، أي أن ذلك كان في عهد سيدنا إبراهيم عليه السلام. في حين يذكر في صـ١٢٧ أن ابن إسحاق قال إن العماليق أتوا إلى جرهم في مكة وسألوهم المقام، فأنعموا لهم، وأنزلوهم أسفل وادي مكة وهي المسفلة، وجرهم في المعلاة، ثم افترقوا فأخرجتهم جرهم إلى الشام!، وفي صـ١٠٣ يذكر المحقق أن العماليق سكنوا الحجاز ومكة والمدينة في

عهد سيدنا موسى عليه السلام، وبغوا وتجبروا، وأرسل موسى عليهم جيشًا فقتلوهم وأفنوهم.

٣. ذكر الهمداني صـ١٥٢ أن لقمان الحكيم كان مولى لرجل من قضاعة اليمنية، ووصف حمير بأنها كانت أعز العرب جميعًا، وأنهم كانوا الملوك الذين يدينون البلاد ويقهرون العباد.

٤. ذكر الهمداني أنه نقل نسب حرب في الحجاز عن محمد بن إبراهيم المحابي بقوله صـ٢٦٦: «حدثني محمد بن إبراهيم المحابي، وكان جارًا لبني حرب والحجاز»، ولم يترجم المحقق للمحابي هذا، وأغلب الظن أنه المخائي، منسوب إلى المخا في اليمن.

٥. وفي صـ٢٦٩: «ومن بطون حرب بني عوف، ومن بني عوف مسروح بن عوف، ومسعود بن عوف، وعلي بن عوف».

فجعلوا مسروحًا ابن عوف ليس جذمًا مستقلًا يقابل بني سالم من حرب، علمًا بأن بني سالم لم يرد ذكرهم في كتاب الإكليل، كما أن الفروع التي هي اليوم مكونات لجذم مسروح لا يوجد فرع منها له سلسلة نسب ممتدة إلى خولان صعدة في كتاب الإكليل؛ لأنها تكتُّل قبلي محض.

كما أن عوفًا وعليًّا التي يذكرونها في الإكليل مجرد أسماء فقط، فلا تاريخ، ولا رجال يشار لهم في كتب اليمنيين.

٦. ويستمر مؤلف كتاب الإكليل صـ٢٧٠ في رواية المحابي فيقول: «فَعَدت بنو حرب يومئذ وهي ستمائة رجل»، فأجلوا من بالبلد من عنزة إلى الأعراض من خيبر، وقتلوا منها بشرًا كثيرًا، ثم ناصبتهم مُزينة الحرب، وكانت أهل ثروة زُهاء خمسة آلاف! فقتلوا منها مقتلة عظيمة، وأجلوا إلى الساحل من الجار والصفراء؟

والمعـروف أن بنـي حـرب الذين ذكرهـم البلخي هم طائفة وليسـت قبيلة (حسـب المصـدر)، ثم أنهم كانـوا هم نواة لقوة الحسـينيين حكام المدينـة قبل أن تتجمَّع عليهم قبائل الحجاز المكوِّنة لبقية فروع قبيلة حرب الحجازية، ولم تكن مزينة في خصومة مع الحسينيين.

٧. سار ابن الملاحظ سلطان مكة إلى حربٍ لمقاتلتهم على تسلطهم، فقتلوا أصحابه وأسروه، ثم منوا عليه وخلو سبيله!!

والملفـت للنظـر: أن كل هذه الحروب ومعادات هذه القبائل السـاكنة في هـذه الديار والأعـداد الكبيرة، ويجلوهم من ديارهـم!؟ ولا تذكر كتب التاريخ أي شيء عن ذلك. الغريب أيضًا أنه لم يذكر لهم وقائع مع جهينة رغم أن الخولانيين كما يذكر قد نزلوا ديارهم، فهل لأن جهينة من قضاعة (قبيلـة يمنيـة)، لكـن في معجم ما اسـتعجم الحبيا: في رسـم الأشـعر. والحبيا مذكور في رسـم حزة، والأشـعر معروف في غـرب المدينة، ولزبيد وإخوتهم بنو حرب المذحجيين درك في الصفراء، ومن سعد العشيرة: زبيد ... وهم: بنو منبه بن صـعب بن سـعد العشـيرة. ويعرف زبيد هذا بزبيد الأكبر، وهؤلاء هم زبيد الحجاز. قال في مسـالك الأبصـار: وعليهم درك الحاج المصري من الصفراء إلى الجحفة ورابغ (صبح الأعشى، صـ ٣٧٩، قلائـد الجمان، صــ٩٠). قال عمرو بن معدي كـرب الزبيدي (معجم ما استعجم، مادة الحبيا):

ومـعـتـرك شـط الـحـبـيـا تـرى بـه مـن الـقـوم مـحـدوسًـا وآخـر حـادسـا

كمـا أن كثيراً من المصـادر قد نسـبت حربًـا الحجازية إلى مذحـج، لا إلى خولان.

نصوص أوردها محقق الكتاب محمد بن علي الأكوع في الإكليل:

١. يقول المحقق صـ١٠٤: «الأندلس فتحها المسلمون سنة اثنان وتسعون على يد القائد موسى بن نصير اللخمي باثني عشر ألفا جلهم يمانية ...».

٢. أفاد في صـ ١١٢ نقلاً عن أحد المستشرقين أن الخط العربي اخترع في اليمن وقال أيضًا إن اليمنيين هم الذين اخترعوا الكتابة وليس الفينيقيين.

٣. ومن أقواله صـ١١٢ يعرّف الجحفة بأنها ميقات أهل الشام وتسمى اليوم «أبيار علي»، ومنها يحرم الحاج القادم من المدينة. كما أشار في صفحة أخرى أن ضمرة الكنانية من خزاعة!!.

٤. عندما ترجم المحقق الصحابي الجليل النعمان بن بشير قال: «ولاه معاوية الولايات العظيمة التي منها اليمن»، في محاولة تضخيم ذلك القطر.

٥. يصف المحقق مدينة مأرب ويبالغ في الوصف فيقول صـ١٤٠: «هي الفردوس الضائع وأحد عجائب الدنيا القديمة وجناتها الباهية الباهرة والزاهية الزاهرة التي أخجلت الدهر، وبهرت اليونان والرومان، وسبقت أمريكا في ناطحات السحاب وبناء السدود، ثم يقول وهي اليوم خرائب وأطلال»!!

أي أنه لم يرها.

٦. صـ١٤٥ ينسب المحقق إمام الحديث الشيخ محمد بن إسماعيل البخاري إلى قبيلة مَذجح.

٧. يصف المحقق مسجد في مدينة اسمها المهجم تقع في تهامة اليمن شرق الحديدة، من الرواة ولم يره، فيقول: «ناهيك عن جامعها المقبب الذي

يشتمل على ثلاثة مئة قبة، وفيه من روعة الفن ودقة الهندسة». ثلاثة مئة قبة!

٨. يصف النجم سهيل في صـ٢٣٨ بأنه النجم اليماني المشهور الذي لا يرى إلا في سماء اليمن!

٩. كما ذكر في صـ٣٠٧: «إنه كان لخولان صنم يقال له عميانس بأرض خولان، ويقسمون له من أنعامهم وحرثهم قسمًا، وقسمًا لله عز وجل بزعمهم وفيهم نزلت الآية: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا﴾ إلى أخر الآية الأنعام ١٣٦.

والملاحظ أن ابن كثير لم يذكر هذا في تفسيره.

١٠. يتهم المحقق الخليفة هارون الرشيد ببغض أهل اليمن وكرههم، وأوصى عامله على اليمن بقوله: «أسمعني أصوات أهل اليمن»، ولم يذكر لذلك مرجعًا.

١١. يقول المحقق في صـ٣٣٩: «إن عاملاً من عمال الخليفة الوليد بن يزيد بن عبد الملك واسمه يوسف بن عمر الثقفي قتل رجلا يمانيًّا اسمه خالد بن عبدالله، فثارت العصبة اليمانية، وحاصرت الخليفة الوليد بن يزيد في داره، ثم دخلوا عليه وذبحوه، وقال شاعرهم:

فمن يك قتله سوقًا فإنا ... جعلنا مقتل الخلفاء دينا»

وهذا غير صحيح، «وإنما الثائرون على الوليد بن يزيد هم أبناء عمومته، وتزعمها ابن عمه يزيد بن الوليد بن عبد الملك، وأعانه على ذلك بعض أخوته وبعض أبناء أعمامه هشام وسليمان والحجاج» (الدولة الإسلامية في عهد بني أمية (صـ١٧٤ الشافي عبد اللطيف).

١٢. يقول المحقق في صـ ٣٤١: «لما حضرت الوفاة مؤذنَ جامع صنعاء يقال له

علـي بن إبراهيم بن خالد أوصـى أن يُبنى لحدُه بلبن قد أعد في البيت، فسـأله بعض أصـحابه عنه فقال: كنت إذا عدت من الخدمة في الجامع بسـطت نطعًا ونفضت ثيابي عليه، فما اجتمع من تراب جمعته حتى كثر فضربت منه هذا اللبن»!

١٣. نقل المحقق عن هشـام الكلبي صـ٦٦ أنه قال: «كان لي عم يعاتبني على حفـظ القرآن، فدخلت بيتًا وحلفـت أن لا أخرج منه حتى أحفظ القرآن فحفظته في ثلاثة أيام»!.

١٤. ذكر صـ٨٧: «إن الهكسـوس والرعاة العمالقة أقـوام يمانية نزحت إلى مصر، كما أن الفتح الإسلامي لمصر كان على أيدٍ يمانية»!.

وأخيرًا؛ إذا كان التاريخ في أثناء التدوين قد تعرض للتشـويه والدس والكيد مـن كُتّـاب أعماهم التعصـب والتحزب، فإن مـن واجب الباحثين اليـوم تنقيته من كل الشـوائب وتقديمه للأجيال القادمة صـافيًا زلالاً، وتخليصـه مما دسّـه المتعصّبون وأصحاب الأهواء.